فصول من حياة الحكم أمير الأندلس

(١)

مؤامرة الفقهاء — وقعة الحفرة

بعد وفاة أمير الأندلس العظيم عبد الرحمن الداخل — صقر قريش — خلفه على الأمارة ابنه الأمير هشام ، وكان هشام رجلا رضى الأخلاق ، كامل المروءة ، عميق العاطفة الدينية . وقد زاده إقبالا على الدين وميلا إلى الزهد تلك النبوءة الغريبة التى سمعها من أحد منجمى عصره ، وذلك أنه عند ما ولى أشخص المنجم المعروف بالضبى من وطنه — الجزيرة الخضراء — إلى قرطبة ، وكان بارعاً فى علم النجوم والمعرفة بالحركات العلوية ، فلما أتاه خلابه وقال له : « يا ضبى ، لست أشك أنه قدعناك من أمرنا إذ بلغك ما لم تدع تحديد النظر فيه ، فأنشدك الله إلا ما نبأتنا بما ظهر لك فيه » !

فاضطرب المنجم ولجلج ، واعتذر قائلا : « اعفنى أيها الأمير ، فإنى ألممت به ولم أحقق النظر فيه لجلالته فى نفسى »

فقال له هشام « قد أجلتك لذلك ، فتفرغ للنظر فيما بقى عليك منه »

و بعد أيام أحضره وقال له : « إن الذى سألتك عنه جد منى ، مع أنى والله ما أثق بحقيقته ، إذ كان من غيب الله الذى استأثر به ، ولكنى

أحب أن أسمع ما عندك فيه ، فالنفس طُلَعَةٌ » وألزمه الصلة أو العقوبة .

فلم يجد الضبي مناصاً من أن يفضي إلى الأمير بما كشفته له الطوالع ، فتشجع وقال « اعلم أيها الأمير أنه سوف يستقر ملكك ، سعيداً جدك ، قاهراً لمن عاداك ، إلا أن مدتك فيما دل عليه النظر تكون ثمانية أعوام أو نحوها »

فأطرق هشام ساعة ، ثم رفع رأسه وقال « ياضبي ما أخوفني أن يكون النذير كلمني بلسانك ، والله لو أن هذه المدة كانت في سجدة لله تعالى لقلت طاعة له » ووصله وخلع عليه .

أثرت نبوءة الضبي في نفس هشام المطبوعة على التدين ، فأعرض عن لذات الدنيا وزخارف الحياة ، وعمل على مراقبة نفسه واستنقاذ روحه ، فكان يلبس أبسط الثياب ، ويطوف بقاعدة ملكه ، ويمتزج بالناس ، ويحاول أن يتعرف حاجاتهم ، وكان يعود المرضى ويشهد الجنائز ، ويتصدق بالصدقات الكثيرة ، وربما كان يخرج في الليالي المظلمة الشديدة المطر ومعه صرر الدراهم يتحرى بها المساتير وذوي البيوتات من الضعفاء ، وكان يصر الصرر بالأموال ويبعث بها في سواد الليل والمطر يتساقط والرياح تتناوح إلى المساجد ، فتعطى من وجد فيها ، يريد بذلك عمارة المساجد . وهكذا ذهب بسيرته مذهباً قوى الشبه بمذهب الخليفة الصالح عمر بن عبد العزيز ، وكان يبعث بقوم من ثقاته إلى الكُور فيسألون عن

سير العمال و يخبرونه بحقائقها ، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه وأنصف منه ؛ ولم يستعمله بعد .

وقد شاءت الأقدار القاسية أن يتورط هذا الأمير التقى الورع فى الخطأ الذى طالما استهدف له البررة الصالحون من الأمراء ، وهو تمكين رجال الدين من أن يزجوا بأنفسهم فى تصريف شؤون الدنيا ، وتدبير سياسة الدولة ، وهى أمور لم يهيئوا لها بحكم ملكاتهم الأصلية ونشأتهم الفكرية التأملية ، وقد كان أبوه الداخل شديد الغيرة على سلطته ، فلم يسمح لرجال الدين بأن يصلوا إلى مكانة تمكنهم من اعتراض سبيله والمساهمة فى تدبيراته. ولكن هشاما لم ترقه هذه السياسة ولم يفكر فى عواقب الإنحراف عنها ، وكان يحب أن يضع ثقته فى هؤلاء الرجال الطاهرين أعلام الهداية ، وأقطاب الفقه ، ولم يستطع — لاستغراقه فى الورع و إمعانه فى الصلاح — أن يلمح فى نفوسهم موقع حب السيطرة ومكمن المطامع . ولم يقصر رجال الدين فى انتهاز هـذه الفرصة الذهبية الثمينة التى لاحت لهم ، فوطدوا مكانتهم ، وحصنوا مواقعهم ، و بسطوا نفوذهم ، و بلغوا فى ذلك شأواً بعيداً .

وفى هذه الفترة ظهر فى الشرق مذهب حديث من مذاهب الفقه الإسلامى ، وهو مذهب مالك بن أنس ، وكان هشام يضمر الاحترام العظيم لهذا الإمام الكبير . ولم يكن مالك محبو باً من العباسيين لأنه كان متهماً عندهم بالميل إلى العلويين . وكان مالك يميل إلى هذا الأمير المناوئ

للعباسيين ، ولما أثنى بعض تلامذة مالك على هشام اشتد إعجابه به وأكثر من الثناء عليه ، ولما وصفه له زياد بن عبد الرحمن قال مالك : « نسأل الله أن يزين موسمنا بمثل هذا » . وكان تلامذة مالك من الأندلسيين يبلغون هشاماً ثناء مالك عليه فيعجبه ذلك ويسره ، وكان من بواعث تأييده لمذهب مالك ونشره فى ربوع الأندلس .

ولما مات هشام سنة ٧٩٦ ميلادية (١٨٠ هجرية) كان مذهب مالك غالباً على الأندلس ، وكان بين أنصاره البارزين طائفة من الشبان الأقوياء ذوى الطموح ، بينهم أبو محمد بن يحيى بن يحيى بن كثير ، وأصله من البربر من مصمودة ، وقد رحل إلى المشرق فسمع الموطأ من الإمام مالك وقال عنه مالك : « هذا عاقل الأندلس » وكان يحيى شخصية قوية امتزج فيها الطموح السياسى بالحماسة الدينية .

وخلف هشاماً ابنه الحكم ، وكان فتى غض الإهاب مشبوب الأحاسيس لا يتجاوز عمره السادسة والعشرين ، وكان على ما يظهر قد عقد العزم على النهوض بتكاليف الإمارة والانفراد بتبعاتها ، لاعتقاده أن تصريف شؤون الدولة وتقرير اتجاهاتها حق من حقوقه التى لا يصح أن ينازعه فيها منازع .

ولم يكن الحكم ماجناً خليعاً خارجاً على الدين مستخفاً برجاله ، بل كان على نقيض ذلك يميل إلى رجال الدين ، ويجد متعة فى أحاديثهم ، ويحترم القضاة ويذعن لأحكامهم ، وإنما كان رجلا مكتمل الرجولة ، محباً للحياة

حريصاً على الاستمتاع بها ، لا يجد داعياً للزهد فى متعها المباحة والتخلى عن نعيمها المشروع ، وقد كرهه رجال الدين لأنه لم يسلس لهم قياده ، ولم يفتح لهم صدره وأذنه ويشركهم فى أمره ، على أن الحكم — كأكثر خلق الله — لم يكن معصوماً من العيوب ولا خالياً من المساوىء ، وربما كان فيه بعض العيوب الخطيرة التى تنتقص الرجال وتعيب الحاكمين ، ولكن رجال الدين لم يكونوا فى موقف يسمح لهم بأن يوازنوا موازنة هادئة نزيهة بين حسناته وسيئاته ، فقد جمعهم فى أحب شىء إلى الإنسان وهو «حب القوة» . ولذلك اختلت موازين هؤلاء القوم الصالحين ، وصاروا فى حالة نفسية تجعلهم يعتقدون أن فى ترويج المبالغات عن سوء سيرته ، وتلفيق الأراجيف حول أعماله ، تأييداً للفضيلة المهدرة المضيعة وحرصاً على الدين المستباح الحمى المهمل الجانب ، ومن المرجح إلى حد كبير أنهم كانوا على استعداد — ربما كان تاما — للإغضاء عن عيوبه ، وإسدال الحجب دون سيئاته لو أنه منحهم السلطة وحباهم النفوذ .

ولما خاب أمل رجال الدين فى استمالته واجتذابه إلى صفوفهم لم يجدوا بأساً فى أن يتحولوا إلى قادة شعبيين يحسون الشعب ، ويثيرون سخطه على الحكم ، ويستغلون سذاجة العامة ويتخذونهم وسيلة لأغراضهم ، وقد وجدوا فى تقبيح سيرته ، وتشويه صورته ، مادة خصبة للمواعظ الحارة ، والأدعية المبتكرة ، واعتصروا شاعريتهم فى نظم أشعار الزهد والحض على قيام الليل فى الصوامع . وخلطوا بذلك شيئاً من التعريض به مثل أن

يقولوا « يا أيها المسرف المتمادى فى طغيانه ، المصر على كبره المتهاون بأمر ربه ، أفق من سكرتك وتنبه من غفلتك » وما نحا هذا النحو .

وكان فى قرطبة جماعة كبيرة من « المولدين » وهم من الذين دخلوا فى دين الإسلام بعد الفتح ، وكان أكثرهم فى الأصل من طبقة العبيد ، وكان هؤلاء القوم أقوياء ناشطين ، وكانوا متبرمين بحالتهم متذمرين من معاملة العرب لهم ، متحفزين للثورة للتنفيس عن كربهم ، ولذا استجابوا لتحريض المحرضين ، ووجد الفقهاء فى نفوسهم مرتعاً خصباً ، فأصبحوا طوع بنانهم وطوع إشارتهم . وفى ذات يوم تطاولوا على الأمير وقذفوه بالأحجار وهو يسير فى شوارع قرطبة ، واضطر هو ورجاله إلى أن يشقوا طريقهم بأطراف السيوف ، وأخمدت الثورة .

وحاول رجال الدين بعد ذلك خلعه والخلاص منه ، فتآمر يحيى وعيسى ابن دينار وغيرهما من أعلام الفقهاء مع جماعة من الأشراف ، وعرضوا الإمارة على ابن عم له يعرف[1] بابن الشماس من ولد منذر بن عبد الرحمن ، وخاضوا معه فى ذلك ، فأظهر لهم الإجابة وقال لهم : « عرفونى بمن معكم فى هذا الأمر » فواعدوه ليوم بعينه ، ثم قصد بنفسه إلى الحكم وأعلمه بذلك ، فشك الحكم فى قوله ، واستكثر أن يقف العلماء منه هذا الموقف فقال له وقد أخذ منه الغضب : « أردت أن تغرينى بأعلام بلدى ، والله

(١) فى ابن عذارى أن اسم ابن عمه هذا محمد بن القاسم وكذلك فى ابن خلدون وقد أخذت برواية ابن القوطية لأنه أقدم عهدا منهما وأكثر استيفاء لتفصيلات هذه المؤامرة .

لتصححن هذا عندى أو لأضربن رقبتك » فقال له ابن شماس : « إبعث إلى أمينك ليلة كذا » ، فبعث إليه فتاة « بزنت » وكاتبه ابن الحذا ، فأقعدها بمكان وراء ستار بحيث يسمعان ما يدور بينه وبينهم ، فأتوه وأداروا الأمر ، فقال لهم : « من معكم فى هذا الأمر ؟ » فأخذوا فى ذكر طائفة كبيرة من الأسماء ، واتسعت القائمة وشملت أسماء كثيرة ، وخشى ابن الحذا أن يذكر اسمه ضمنهم ، فصوت بالقلم فى الرق فثار القوم وقالوا لابن شماس : « فعلتها يا عدو الله ! » ولاذ كثير منهم بالفرار بينهم عيسى بن دينار فقيه الأندلس ويحيى بن يحيى ، وقبض على نحو اثنين وسبعين من الباقين بينهم ستة من كبار الفقهاء وصلبوا جميعاً .

وثار أهل الربض بقرطبة فى السنة التالية وشهروا السلاح ودارت الحرب بينهم وبين الجند ، وكان ذلك فى أثناء غياب الحكم بالمريدة ، فعاد مسرعاً وأخمد الثورة ، وأطار رؤوس أشد الثائرين خطراً .

على أن هذا القتل لم يكن كافياً لإرهابهم وإرغامهم على الطاعة ، وقد حدثت بعد ذلك وقعة الحفرة فى طليطلة فأظهرت لهم أن الحكم من هؤلاء الأمراء الجبابرة الذين لا يحجمون عن الغدر والخيانة والولوغ فى الدماء إذا كان ذلك لازماً لتثبيت قواعد ملكهم وتخضيد شوكة أعدائهم ، وقد كان الحكم ميالاً إلى الصفح وسياسة الأمور فى رفق واعتدال ، ولكن حب التمرد والعصيان الذى كان مستحكماً فى نفوس رعيته جعله ميالاً إلى الشدة وسفك الدماء .

وقد كان لمدينة طليطلة عاصمة القوط السابقة شأن خاص لشهرتها

القديمة ، وكان الإسبانيون يعتبرونها من الناحية السياسية والناحية الدينية أكبر مدن أسبانيا شأناً ؛ وكان أهلها معروفين بالإقدام وشدة الطموح والميل إلى الحرية ، وكانت طاعتهم ملتاثة ، وكان بها غربيب الشاعر ، وكان يثير حميتهم بشعره ويرد عنهم الكيد بدهائه . ولم يحاول الحكم استرداد طليطلة وإرغامها على الطاعة فى حياة غربيب ، لاعتقاده أن ذلك سيكلفه مجهوداً شاقاً ، فلما مات غربيب استدعى الحكم عمروس من مدينة وشقة — وكان من المولدين — وأفضى إليه بمقاصده وخططه فى الاستيلاء على طليطلة ، وقال له « إنى لم يقم لى أمل فى الانتصاف من أهل طليطلة إلا على يدك » وكان عمروس من ذوى المطامع الذين لا يقيمون وزناً للدوافع الأخلاقية ، فوافقه على ذلك وولاه طليطلة ، وكتب إلى أهلها كتاباً يخدعهم عن عقولهم ويقول « إنى اخترت لكم رجلا من أهلكم وأعفيتكم من موالينا » وحد لعمروس حدوداً رجا بها بلوغ أمله ، فكان مما حد له أنه قال « إذا أنس أهل طليطلة إليك وأحلوك محل واحد منهم بإظهارك لهم فى الباطن أنهم أحب إليك من بنى أمية ، ومن كل من عرفهم ، وأنك على كراهة لجميعهم ، فعليك أن تقول لهم إنى رأيت هذا الشر الحادث بينكم وبين عمال السلطان إنما هو بمداخلة الحشم لكم ولبنيكم ونسائكم ، فأرى أن أبنى قصبة فى جانب من المدينة يسكنها الحشم فيكونوا بمعزل عنكم وتسلموا من شرهم ، فأجابوا إلى أن تكون القصبة فى وسط المدينة ، فبنى قصراً واستخرج ترابه من حفرة فى وسطه ، فلما تم القصر

ورحل إليه وسكنه أعلم الحكم بذلك ، فعهد الحكم إلى بعض قواده فى الثغر بأن يخاطب بحركة العدو و يطلب النجدة . فلما عمل برأيه استنفر الحكم الناس بقرطبة وغيرها وأخرج ابنه عبد الرحمن ، وهو حينئذ ابن أربع عشرة سنة وأخرج معه ثلاثة من الوزراء ، وكتب الحكم كتابا وأوصى حامله أن يدفعه إلى الوزراء عند اجتماعهم بعمروس ، فلما صار العسكر على مقربة من طليطلة تلقاهم الخبر بانصراف العدو ، فقال عمروس لأهل طليطلة إنه سيخرج للحفاوة بالأمير الصغير ، وأشار عليهم بالخروج معه ، فلبوا طلبه ، وأحسن الأمير لقاءهم و بسط لهم من حسن رأيه ما أنسوا إليه ، ثم خلا عمروس بالوزراء ، وجاء حامل الكتاب فدفعه إليهم ، فإذا فيه أن يشير عمروس على أهل طليطلة بدعوة ولى العهد إلى مدينتهم ليكونوا من خواصه ، وأن يظهر الأمير التمنع والتردد فى دخول طليطلة حتى يعزموا عليه فإذا عزموا انقاد لهم ودخل المدينة وأقام فى القصر ، فسأله القوم ذلك فتغاضى، ولكنهم ألحوا عليه والتمسوا منه زيارة المدينة ، فرحل إليها ودخلها وأقام فى قصر الحاكم ، وكان له بابان ، ثم دعا وجوه أهل طليطلة إلى وليمة كبيرة فحضروا وأمروا بالدخول من باب ، وحرفت دوابهم إلى الباب الثانى ليخرجوا منه ، ولم يسمح لهم بالدخول جماعات ، بل كانوا يدخلون أفراداً ، ووقف السيافون على شفير الحفرة فى داخل القصر ، فكان كل من دخل تضرب رقبته ، واستمرت هذه المجزرة ساعات ، ومن الصعب معرفة عدد من قتلوا ، وأتى الباب الذى منه الدخول أحد سكان طليطلة فلم يلمح أحداً

خارجاً وقد تعالى النهار ، فقال لمن حول الباب : « أين أصحابنا الذين دخلوا من غدوة ؟ » فقيل له إنهم يخرجون من الباب الثانى فقال : « إنى لم ألق أحداً منهم منقلباً » ثم رفع بصره فنظر إلى بخار الدم فقال : « يا أهل طليطلة السيف والله يعمل فيكم ، هذا بخار الدم لا دخان المطبخ » فكان قوله سبب افتراق الناس و بقاء من بقى منهم

فقدت المدينة فى تلك الوقعة قادة ثورتها ، وزهرة سكانها ، وذوى الثروة والنفوذ فيها ، فاستكانت للضربة القاضية ، واستقامت طاعة أهلها ، ولم يظهر بينهم من يرفع علم الثورة ، و يثأر لدماء قتلى الحفرة .